السنة الرابعة /
تاريخ
الفصل السابع

اليوم الثلاثاء
الموافق
14/10/2025

المحاضرة العاشرة
تاريخ السودان المعاصر

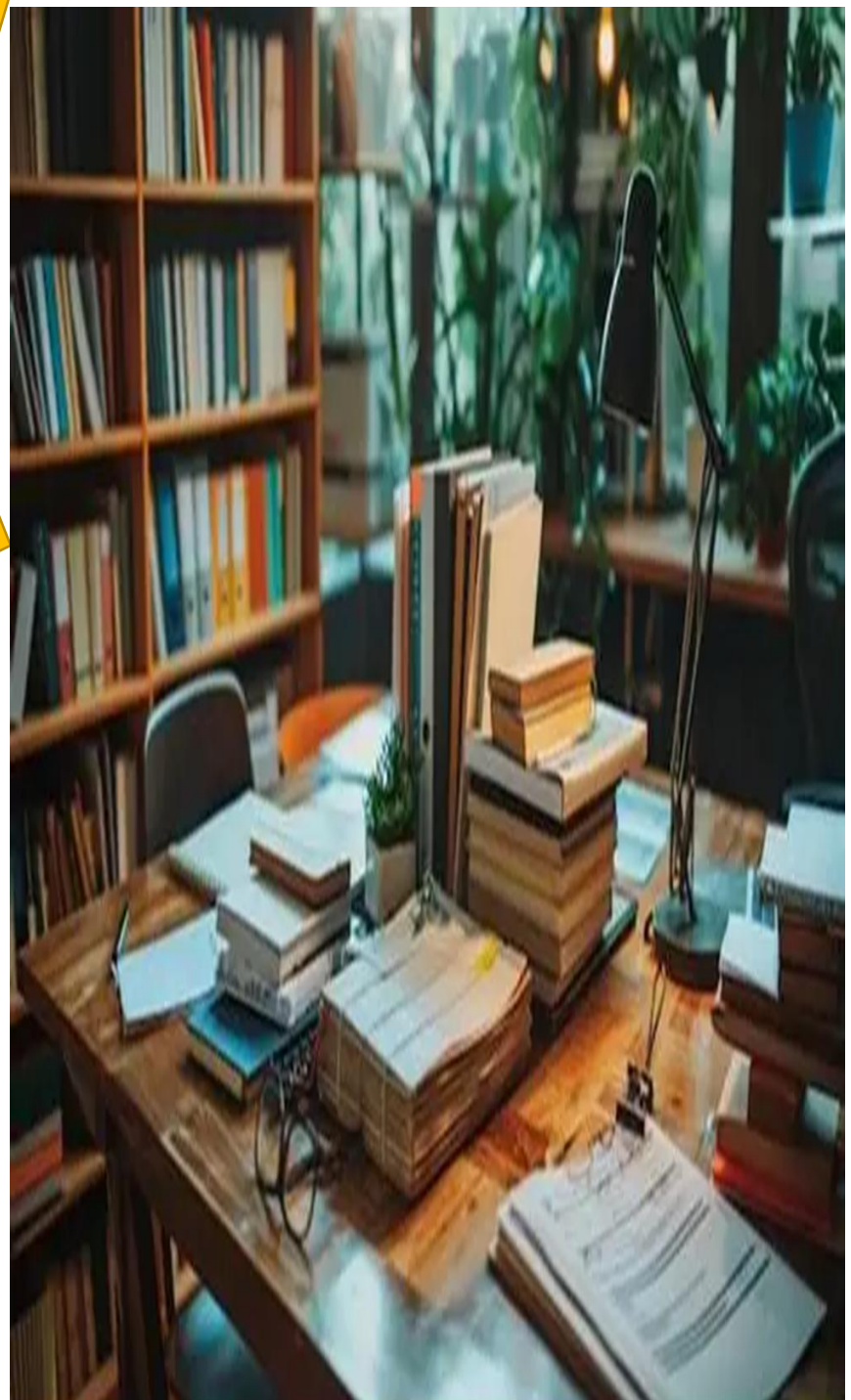

اللورد كرومر المندوب السامي بمصر ومهندس اتفاقية الحكم الثنائي في السودان

ويرى كرمر ان الخديوي والمحيطين به والمسترشدين بارائه وتوجيهاته سوف يعملون علي اثارة تلك الكراهية دائما ضد الاحتلال البريطاني ومن المتوقع ان تزيد هذه الكراهية ويبقي العداء في تزايد مطرد لان الحكومة البريطانية لم تعد تفكر في الجلاء عن مصر ذلك الوعد الذي قطعته لهم حينما حلت بمصرِ وسيعلموا ان تلك الوعود كانت عبارة عن خدعة وطعم ابتلعه المصريون دون وعي وادراك لابعاد الاستراتيجية البريطانية

وتلك حقيقة لا سيما  اذا تأكد لنا ان بريطانيا قد  حزمت امرها واستقر رأيها فعلياً في احتلال مصر احتلالا دائماً. و في هذا الاثناء حذر كرومر الحكومة البريطانية  من احتمالية استعداءامبراطور الحبشة ( منليك الثاني ) ضد الوضع الجديد في السودان اذا تقرر ضم الاراضي التي وصل اليها الاحباش  في النيل الازرق ، اوالتي استولوا عليها فعلافي السودان الشرقي . وهذا مطب اخر  ينبغي اخذه في الاعتبار والتفكير في كيفية التعامل معه وتجاوزه قبل ان يكون واقعاً تفاجأ به الحكومة البريطانية

ومن الحلول المسبقة الجاهزة لمواجهة هذه المعضلة الوشيكة الوقوع قدم مقترحا فحواه ان يقتصر الاحتلال في المرحلة الاولى علي الاراضي التي يتضح ان احتلالها ضروريا ولا مفر منه لتنفيذ السياسة العامة التي تريد الحكومة البريطانية اتباعها في السودان . اي احتلال الاراضي الواقعة علي جانبي النيل الابيض واحتلال قسم فقط من النيل الازرق. لاحظوا ان الكلام في هذه الفترة المبكرة والذي كان يدور بين كرومر ورئاسته في بريطانيا يدور حول مصطلح احتلال ولم يرد ولو مرة واحدة مصطلح فتح

الذي دس في مناهجنا فيما بعد لخداعنا وتجيير وتزوير الحقائق التاريخية . هذه المناهج التي ظلت تدرس لنا بعد خروج المحتل لاكثر من ستين عاما وما زالت تسود كتب تاريخنا وكتب كبار المؤرخين السودانيين من الرعيل الاول حيث يوصف الاحتلال الانجليزي المصري بالفتح وهذه اكبر اكذوبة في التاريخ الحديث والمعاصر.

من خلال هذا العرض يتضح لنا بجلاء ان اللورد كرومر كان يشكل شخصية محورية مهمة في تنفيذ استراتيجية بريطانيا الرامية الى غزو واحتلال السودان احتلالا دائما وتنزيلها على الواقع بكفاءة واقتدار .

لهذا نلاحظ انه كان يجتهد في تنزيل الاستراتيجية البريطانية على ارض الواقع بكل من اوتي من قوة ذهنية ولهذا . فقد انتقل بعد تلك التحذيرات عما هو محتمل وقوعه اومواجهته الي بحث مسألة ماهية الوضع السياسي المناسب المزمع قيامه في السودان و الذي يجب اختياره بحذر وعناية ودفعا لاي اعتراض محلي او اقليمي او دولي . وفي هذا الوقت وقت التحضير والاعداد لغزو السودان واحتلاله اثيرت مسألة السيادة برمتها لانه من اجل تحديد الوضع السياسي الجديد المرتقب في السودان والذي يعتبر ذلك لازمة من لوازم الاحتلال . و عليه ووفقا لهذا التوجه الجديد والاستراتيجية والرؤية البريطانية القاضية بغزو واحتلال السودان عاجلا ام اجلا فلا مفرمن تحديد مصير ماهية السيادة التي يجب استئنافها بعد احتلال

السودان وليس استرجاعه كما ظهر استعماله لاحقا من اجل التمويه على كل الاطراف مرحليا. ومن هنا بدأ كرومر يعيد الكلام عن صوابية فكرة رفع العلمين البريطاني والمصري جنبا الي جنب حال نجاح هزيمة المهدويين واحتلال السودان لتفادي بعث فكرة انفراد مصر بالسيادة . ولتبديد الاحلام المصرية التي بدات تراود المصريين بامكانية عودتهم الى السودان كما كانوا قبل الثورة المهدوية منفردين بالحكم لانهم صدقوا الكذبة البريطانية بان بريطانيا مهمتها استعادة السودان الى الحظيرة العثمانية المصرية واعتقدوا ان السودان سيتم استرجاعه اليهم علنا طبق ممن ذهب بواسطة بريطانيا . بلا شك ان هذه الفكرة على ارض الواقع مناقضة تماما للتوجه البريطاني الرامي الى الانفراد في نهاية المطاف باحتلال السودان وازاحة الجانب المصري بالتدريج من المشهد تماما

ومن هذا المنطلق بدأ كرومر يتكلم صراحة ويؤكد على ضرورة مزايا هذه الفكرة اعني فكرة رفع العلمين جنبا الى جنب بمجرد الاحتلال . ويرى انه من الحكمة الاخذ بها علي الاقل كاجراء مؤقت حتي يتم الفصل نهائيا في المسألة وذلك كاشارة الي التغيير الذي طرأ علي الوضع في السودان بعد سقوط المهدية واسترجاعه

ولكن في المقابل توقع كرومر معارضة الخديو لرفع العلمين بيد انه كان يذهب الى انه ينبغي ان لا يؤبه لاعتراضه . وهنا يرد سؤال منطقي لماذا لا يؤبه له وهو الرئيس المصري الشرعي والحاكم ؟ جاء رد كرومر قائلا: لان الخديو يعلم علم اليقين انه لا يستطيع ان يتخذ خطوة في السودان ولا في مصر الا بموافقة الحكومة البريطانية الشريك الاكبر. ذلك يعني ان الخديو كان مغلول اليد والارادة . و لهذا كان يرى في ذات الوقت بان رفع العلمين البريطاني والمصري متجاورين من شانه ان يؤكد علي حقيقة ان الخديو لا يستطيع بل لا قدرة له علي العمل في السودان من غير موافقة شريكه الاكبر بريطانيا العظمى. ومن ثم سيوافق وسيرضى غصبا عنه بالامر الواقع .

لاحظوا ان كلمة الاكبر الواردة هاهنا مقصودة في هذا السياق بمعني انه الوصي الاكبرعلي اخيه الاصغر. ومن ناحية أخرى فان وضعية رفع العلمين بهذه الكيفية وبهذا المفهوم فيه توجيه رسالة ضمنية للسلطان العثماني وهو الذي يتمسك بحقه في السيادة علي مصر والسودان . كما ان ذلك فيه اشارة وتحذير مبطن للفرنسيين والاحباش علي حد سواء بان السيطرة علي النيل هي في الواقع قضية انجليزية بالدرجة الأولي اكثر منها عثمانية او مصرية. ومن ثم فان اي اقتراب منه يعني مواجهة مباشرة مع بريطانيا وليس مع مصر او السلطنة العثمانية .

# صور مشاهد من لندن (1890 ) الى بالعشرينات من القرن العشرين

هل سرقوا الفن المعماري من أفريقيا؟

الى الشمال مسجد جينيه في مالي ويعود تاريخ بنائه الى القرن الثاني عشر الميلادي والى اليمين مبنى البرلمان البريطاني الذي ذي أعيد بناؤه في أواخر القرن التاسع عشر، أوجه التشابه ملحوظة. أشار كتاب ديان دارك إلى استفادة أوروبا وأمريكا الشمالية من المعمار الأفريقي. اما من الحضارة السيودانية القديمة فحدث ولا حرج فقد سرقوا احتفالية ومراسم تنصيب الملكة من السودان حذو النعل بالنعل بالاضافة الى اثار كثيرة في باحة الاستقبال للمتحف البريطاني

View down Oxford Street, London | Victorian london, London, Victorian life

"منظر من شارع أوكسفورد في لندن ولندن في العصر الفيكتوري، لندن، الحياة الفيكتورية"

هذا يشير إلى صورة أو مشهد يُظهر شارع أوكسفورد خلال فترة العصر الفيكتوري (1837–1901)، وهي فترة تاريخية تتميز بالتحولات الصناعية والاجتماعية في بريطانيا، وغالبًا ما تُستخدم هذه العبارة لوصف صور تاريخية تُظهر الحياة اليومية، الأزياء، وسائل النقل، والمباني في تلك الحقبة

صورة مدينة لندن في القرن التاسع عشر الميلادي

و وكان يقترح في حالة احتجاج الفرنسيين علي رفع العلمين فالجواب حاضر بانهم هم انفسهم منذ امد قريب طلبوا من الخليفة عبدالله استخدام الراية الفرنسية ولكن الخليفة رفض ذلك . بعد دراسة المذكرة الضافية بدات فكرة رفع العلمين البريطاني والمصري جنباً الي جنب تزداد بروزاً. ومن ثم بدات الحكومة البريطانية في اتخاذ الاجراءات التي من شانها تسويغ وتبرير هذا القرار القاضي بالمشاركة في إدارة السودان والتخلي نهائياً عن الفكرة القائلة بان بريطانيا تعمل على استرجاع السودان الى حظيرة السيادة المصرية العثمانية او ان استرجاعه هو لصالح مصر فقط . ومن حقها أن تمارس عليه سيادة وسلطة منفردة كما كان الحال قبل قيام الثورة المهدوية . ودعوى استرجاع السودان كانت خدعة مرحلية ادت مفعولها وتلاشت في مراحل التنفيذ الفعلي

ولتعزير موقف هذا القرار الذي يمكن ان تكون له عدة ردات فعل من قبل فرنسا وروسيا والسلطنة العثمانية والخديوية قررت الحكومة البريطانية المساهمة في نفقات الغزو وعدم الاكتفاء بالمعاونة العسكريةالتي قدمتهاالحكومة البريطانية التي اشتركت في الغزو ولتنفيذ ها القرار الاخير تنازلت الحكومة البريطانية عن المبالغ التي اقرضتها لمصر عا 1898م. وابلغ سالسبري كرومر في 5يوليو 1898م ان مجلس العموم البريطاني بناء علي اقتراح من وزير المالية البريطاني ( السير ميخائيل هيكس بيش )( Micael Hicks Beach ) قرر تنازل الحكومة البريطانية عن المبلغ الذي اقرضته الي مصر وقدره 798.802 جنيها مصرياً .

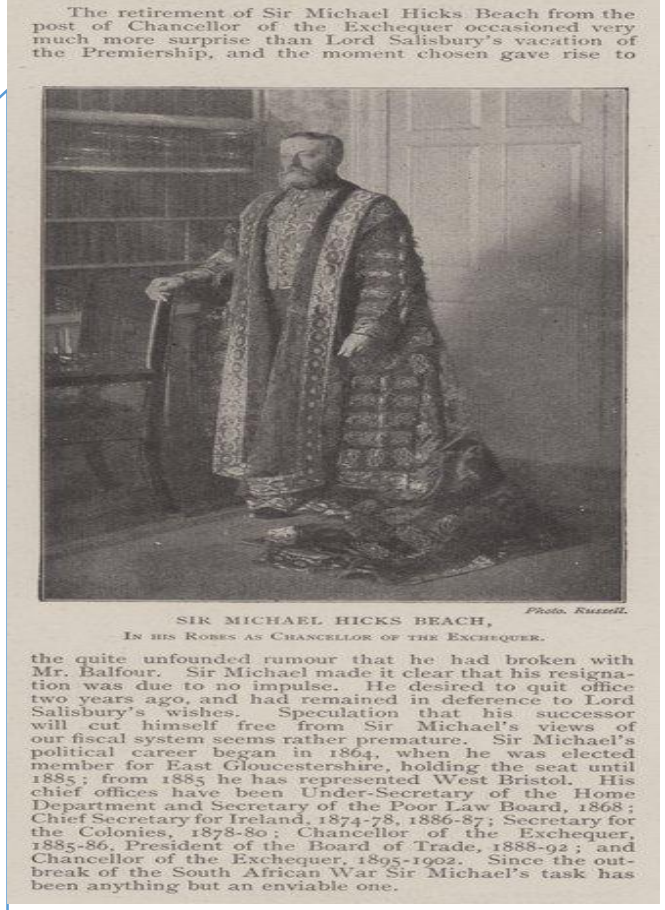

The retirement of Sir Michael Hicks Beach from the post of Chancellor of the Exchequer occasioned very much more surprise than Lord Salisbury's vacation of the Premiership, and the moment chosen gave rise to

Photo. Russell.

SIR MICHAEL HICKS BEACH,
In his Robes as Chancellor of the Exchequer.

the quite unfounded rumour that he had broken with Mr. Balfour. Sir Michael made it clear that his resignation was due to no impulse. He desired to quit office two years ago, and had remained in deference to Lord Salisbury's wishes. Speculation that his successor will cut himself free from Sir Michael's views of our fiscal system seems rather premature. Sir Michael's political career began in 1864, when he was elected member for East Gloucestershire, holding the seat until 1885; from 1885 he has represented West Bristol. His chief offices have been Under-Secretary of the Home Department and Secretary of the Poor Law Board, 1868; Chief Secretary for Ireland, 1874-78, 1886-87; Secretary for the Colonies, 1878-80; Chancellor of the Exchequer, 1885-86, President of the Board of Trade, 1888-92; and Chancellor of the Exchequer, 1895-1902. Since the outbreak of the South African War Sir Michael's task has been anything but an enviable one.

وبعد ذلك  باقل من شهر ابلغ سالسبري  القاهرة بالتعليمات التي اتخذتها الحكومة البريطانية في السودان من حيث رفع العلمين البريطاني والمصري في الخرطوم عند سقوطها. ومن غير المؤكد ان يكون لهذا القرار  علاقة بالشكل الذي سيكون عليه  الوضع السياسي في السودان . لاحظ ان هناك مرواغة  وتلاعب بالالفاظ وفي ذات الوقت  نلاحظ ان بريطانيا  غير متعجلة في اعلان كل خطواتها لاحتلال السودان في حزمة واحدة .وهي تبيع في الوقت . وتقوم بمراوغات وتلاعب بالعبارات  والتصريحات. وكل ذلك يتم  علا نار هادئة  في حدود استراتيجيتها الكلية  الرامية في نهاية المطاف الى غزو السودان تحت مظلة مصرية وبادعاء استرجاع السودان وفي اثناء التنفيذ  في كل مرحلة يتم  الاستبدال والالغاء لدعوى الاسترجاع

- لقد تكررت الاشارة الى كرومر بكثافة السؤال الذي سيطرأ هنا من هو هذا المندوب السامي البريطاني الذي كان مهندس الاتفاق الثنائي ؟
- نبدأ بالسيرة المبكرة لايفلين بارينج (لورد كرومر الأول)

- وُلد ايفلين بارينج وهو الاسم الاصليؤ كابن تاسع لهنري بارينج وزوجته الثانية سيسيليا آن، من أسرة بارينج المصرفية ذات الأصول الألمانية.
- ينتمي إلى الفرع الإنجليزي للعائلة، التي أسسها يوهان بارينج بعد هجرته من ألمانيا عام 1717، وكان ابنه السير فرانسيس مؤسس بنك بارينجز.
- بعد وفاة والده عام 1848، أُرسل ايفلين وهو في السابعة من عمره إلى مدرسة داخلية.
- التحق ايفلين بالأكاديمية العسكرية الملكية في سن الرابعة عشرة، وتخرج منها برتبة ملازم في سلاح المدفعية الملكية بعمر السابعة عشرة. والان خدعونا وخدعوا شبابنا وحكوماتنا بان هذه السن هي سن الطفولة والمراهقة وان هذا العمر هو عمر الاحداث والمراهقة وصدقنا
- بدأ مسيرته العسكرية بالخدمة في بطارية مدفعية بجزيرة كورفو، مما شكّل أولى خطواته نحو العمل الإمبراطوري البريطاني.

❑ خلفية لورد كرومر العائلية والمصرفية و دوره في إدارة مصر والسودان:

- من المصرف إلى المستعمر المحتل: السؤال كيف شكّلت خلفية كرومر المالية رؤيته للإدارة الإمبراطورية؟
- الجذور العائلية والمالية:الخلفية العائلية والتعليم:

ينحدر يفلين بارينج من عائلة بارينج المصرفية، وقد كانت هذه العائلة من أبرز ممولي الإمبراطورية البريطانية، ولها علاقات وثيقة بالمؤسسات المالية الكبرى، بما في ذلك بنك إنجلترا والخزانة البريطانية.

- الانعكاس على الإدارة الاستعمارية:
- - كرومر لم يكن مجرد إداري، بل كان يحمل عقلية مصرفية واضحة، حيث ركّز على الانضباط المالي، تقليص الإنفاق، وتحقيق فائض الميزانية حتى على حساب التنمية الاجتماعية.
- - اعتبر أن الاستقرار الاقتصادي هو المدخل الأساسي للسيطرة السياسية، وهو ما طبّقه في مصر بعد أزمة الإفلاس عام 1876، حين تولّى الرقابة على المالية المصرية.
- - دعم سياسات زراعية قائمة على المحاصيل النقدية (القطن)، بما يخدم مصالح السوق البريطاني، ويضمن تدفق العائدات إلى لندن.

❑ التمهيد لاحتلال السودان:

- من خلال سيطرته على مصر، ساهم كرومر في تهيئة الأرضية لغزو واحتلال السودان، حيث اعتبر أن السيطرة على منابع النيل ضرورية لحماية الاستثمارات البريطانية في مصر.
- دعم إعادة غزو واحتلال السودان عام 1898، وشارك بصورة اساسية وفاعلة في تأسيس نظام "الحكم الثنائي" الذي كان في الواقع امتدادًا للهيمنة البريطانية المباشرة.

التقييم التاريخي:

خلفية كرومر المصرفية لم تكن هامشية، بل كانت جوهرية في تشكيل رؤيته للإدارة الاستعمارية. فقد تعامل مع مصر والسودان كـ"أصول مالية" يجب ضبطها، لا كدول ذات سيادة أو شعوب ذات حقوق. وهذا ما جعله رمزًا للبيروقراطية الإمبريالية التي مزجت بين الاقتصاد والسياسة في مشروع الهيمنة البريطانية.

- كرومر ومعاداته للفكر الإسلامي:
- منهج كرومر في العالم الاسلامي : التغريب كأداة للهيمنة

في كتابه Modern Egypt، عبّر كرومر عن قناعة راسخة بأن الإسلام، في جوهره، يعارض العقلانية الغربية. يعارض الاحتلال والاستغلال والوجود الغربي في العالم الاسلامي . وكان يرى أن الفكر الإسلامي يعيق التقدم، التقدم في نظره الذي يعني الاستلاب الثقافي والرضوخ للاستراتيجية الغربية والخنوع والخضوع التام للااحتلال . ولما راي ان الدين في العالم الاسلامي وفي السودان هو باعث قوة لقوة الامة المسلمة وعدم رضوخها وامكانية استغلالها فقدر وفكرر وراى ان الإصلاح في نظره الذي يمكن المحتل من السيطرة والهيمنة لا يتم إلا بفصل الدين عن الدولة والتعليم. وراى ان الوسيلة لبلوغ ذلك الهدف تتلخص في :

- دعم تقليص التعليم الديني.
- الترويج لنموذج إداري علماني مستورد

❑ كرومر :الهوية والمسيرة:

ايفلين بارينج (1841–1917) كان دبلوماسيًا ومسؤولًا استعماريًا بريطانيًا بارزًا، تولى أدوارًا محورية في إدارة مصر خلال الحقبة الاستعمارية البريطانية الاحتلالية ،و بدأ مسيرته العسكرية في سلاح المدفعية الملكية، ثم انتقل إلى العمل الإداري والمالي في سياقات استعمارية احتلالية متعددة.

❑ الدور في مصر:

- عُيّن مراقبًا عامًا عام 1879 ضمن الرقابة الدولية على المالية المصرية بعد أزمة الإفلاس عام 1876.
- من 1883 إلى 1907، شغل منصب الوكيل والقنصل العام البريطاني، وهو منصب منحه سلطة فعلية على الشؤون المالية والإدارية في مصر خلال الاحتلال البريطاني الذي أعقب الثورة العرابية.
- مثّل بارينج السلطة الفعلية خلف الحكم الرسمي، ووجّه السياسات الاقتصادية والبيروقراطية بما يخدم المصالح البريطانية. في كل من مصر والسودان

- كرومر:السياسات والآثار:
  - ركّز على الاستقرار المالي من خلال تعزيز المحاصيل النقدية، خاصة القطن، ما أدى إلى نمو اقتصادي محدود.
  - أهمل تطوير الخدمات الاجتماعية، خصوصًا التعليم الحكومي، مما أدى إلى تراجع في البنية التحتية الاجتماعية.
  - عمّق التبعية الاقتصادية لمصر تجاه السوق البريطاني، وأضعف مؤسسات الحكم الذاتي.

الإرث التاريخي:

يُعد بارينج أحد أبرز رموز الإدارة الاستعمارية الاحتلالية البريطانية، وقد أثارت سياساته جدلًا واسعًا بين مؤيدي الاستقرار المالي ومعارضي التبعية الاستعمارية. ترك بصمة عميقة في تاريخ مصر الحديث، لا سيما في مجالات الاقتصاد والتعليم والإدارة.